

الرأي في اختلاف المذاهب

مع ذلك كله فإن هؤلاء الأئمة ليسوا هم العلماء كلهم، بل في زمانهم من هو أهلٌ للاتباع وأهلٌ للعلم؛ فالإمام الثوري عالم العراق من العلماء المشهورين ، وكان له أيضًا أتباع ، والإمام الليث بن سعد عالم مصر كان أيضًا عالمًا جليلاً كبيرًا، وله أيضًا أتباع، وإن لم يكن له مؤلفات ولا مذهب متبع ، وكذلك الإمام الأوزاعي أبو عبد الرحمن عالم الشام في زمانه، وله أيضًا أتباع، وله تلاميذ كثيرون. ولكن المجمع واحد، فكلهم يتبع الآخر إذا ظهر له الحق مع أحدهم، فإنهم يتبرؤون من الخطأ ويقولون لتلامذتهم: إذا اتضح لكم الخطأ في قولنا فلا تتبعوه، اتبعوا الحق وخذوا به. ذكروا أن الإمام أبا حنيفة يقول: إذا جاء الحديث عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن الصحابة فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن التابعين، فنحن رجال وهم رجال؛ وذلك لأنه من التابعين. واشتهر عن مالك رحمه الله أنه يقول: كلُّ أحدٍ يؤخذ من قوله ويُترك إلا صاحب هذا القبر ، يعترف على نفسه بأن أقواله عرضة للخطأ وعرضة للترك، وإذا اتضح فيها خطأ فليُترك. وجاء رجل إلى الشافعي رحمه الله، وسأله عن مسألة: فقال: هذه المسألة أفتى فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بكذا وكذا ، فقال السائل: فما تقول أنت يا أبا عبد الله ؛ فعضب الشافعي غضبًا شديدًا وقال: ويحك أتراني في بيعة؟ أتراني في صومعة؟ أتراني على وسطي زنار؟! أقول لك أفتى فيها رسول الله صلى عليه وسلم وتقول ماذا تقول أنت، أترى أنني أخالف فتوى رسول الله صلى الله عليه وسلم! هكذا غيرتهم وحماستهم على السنة النبوية. كذلك الإمام أحمد رحمه الله اشتهرت مقالته التي يقول فيها: عجبت لقوم لقوم عرفوا الإسناد وصحته ويذهبون إلى رأي سفيان والله تعالى يقول: { قَلِيحِدِرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } (النور:63) أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزبغ فيهلك. هذه مقالاتهم التي يحثون فيها على الرجوع إلى السنة ومع ذلك وللأسف ؛ فإن كثيرًا من أتباعهم المقلدة صاروا يرون الحق والصواب معهم فقط، ويتعصبون للمذاهب هذا التعصب الذي سبب الفِرقة. فقد نتج عن التعصب لمذهب هذا على هذا؛ أنه حصل بينهم منافسات ومجادلات سواءً في الكتب أو في الأعمال أو نحوها، حتى ذكروا أن المسجد الأموي الذي في دمشق كانت تقام الصلاة فيه أربع مرات يصلي الإمام الحنفي بمن معه، ثم يصلي الشافعي، ثم المالكي، ثم الحنبلي، وهذه تفرقة بين المسلمين. وهكذا أيضًا قبل مائة وخمسين سنة في الحرم المكي كان فيه أربع مقامات، فالمقام الحنفي في الجانب الشمالي يصلي فيه الإمام الحنفي، والمقام المالكي في الجانب الغربي يصلي فيه الإمام المالكي، والمقام الشافعي في الجانب الجنوبي يصلي فيه الإمام الشافعي، والمقام الحنبلي بالجانب الشرقي في مقام إبراهيم يصلي فيه الإمام الحنبلي، فتقام الصلاة في المسجد الحرام أربع مرات أو يصلي فيه أربعة أئمة! هذا لا شك أنه تعصب مذموم. ومع الأسف ذكر لنا أن كثيرًا من المبتدعة يعيدون الصلاة إذا صلوا خلف إمام الحرم الموجود الآن؛ يقولون: هذا وهابي مبتدع ضال ، ولكن هؤلاء ما ضلّوه لأجل أنه حنبلي، وإنما من أجل أنه وهابي كما يزعمون. نحن نقول: الأئمة رحمهم الله مجتهدون ومذاهبهم معترف بها واتفاقهم حجة قاطعة وإجماعهم دليل قوي ، واختلافهم رحمة وفيه سعة. ذكر أن رجلا جاء إلى الإمام أحمد وقد كتب كتابًا سماه (الاختلاف) قال فيه مثلًا: اختلفوا في المسألة الفلانية فقال الشافعي كذا، وقال الثوري كذا، وقال الليث كذا، وقال مالك كذا ، فسماه (الاختلاف) فأنكر عليه أحمد وقال: لا تسمه بالاختلاف بل سمه بالسعة ، يعني: إن هذا الاختلاف توسعة على المسلمين حتى إذا عمل أحدهم بهذا القول، وعمل الثاني بهذا القول كان كل منهم على خير. فهذا ما يتعلق بهذه المذاهب ، وهي المذاهب المتبعة، ومن ظهر له الحق في غير مذهبه، فلاضير عليه أن يتبع الحق ولو خالف مذهب إمامه، والله تعالى أعلم، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.